

المحاضرة السابعة: المنهج التأملي العقلي الديكارتي

لقد استطاع ديكارت أن يضع كل المذاهب الفلسفية والمناهج المعتمدة بين قوسين، وأن يعتمد في ذلك على طريقة تختلف عن سابقتها. يقول في ذلك: " ولن أقول شيئاً بخصوص الفلسفة إلا شيئاً يبدو أنني لما رأيت أنه وقع تعاطيها من طرف أبداع العقول (...) وأنها على الرغم من ذلك لا تحتوي على مسألة واحدة لا يمكن الجدل بشأنها (...) إني لما رأيت من تعدد الآراء التي يرتئونها أناس علماء إزاء الموضوع نفسه، دون أن يكون من بينها رأي واحد صحيح بالخطأ كل ما لم يكن إلا شبيهاً بالحقيقة"¹ لذا فإنّ أول إصلاح فكري يجب على الفيلسوف أن يقوم به هو الظفر بطريقة قوية توصله إلى المعرفة القوية، ولو ظفر الفلاسفة السابقون بهذه الطريقة لما خبطوا في مباحثهم خبط عشواء.

ولتحقيق ذلك يجب تغيير في طبيعة الفلسفة، وبالتالي يستهدف ديكارت لتحقيق ذلك ثلاثة أمور، وهي:

1- ايجاد علم يقيني فيه من اليقين بقدر ما في العلوم الرياضية، بدلا من العلم الواصل إلينا من العصر الوسيط الإسكلائي.

2- تطبيق هذا العلم اليقيني تطبيقاً عملياً يمكن "من أن يصيروا بمثابة ومالكين للطبيعة".

3- تحديد العلاقة بين هذا العلم وبين "الموجود" الأعلى، أي الله، وذلك بإيجاد ميتافيزيقا تتكفل بحل المشاكل القائمة بين الدين و العلم².

1/- تعريف المنهج الديكارتي:

كان ديكارت مولعاً بالرياضيات، ولهذا لم يستهوه مما تعلمه في مدرسة لافلاش إلا بالرياضيات، والتحليل الهندسي، والجبر بوجه خاص. وتمنى لو اتخذت الفلسفة، والعلوم

¹ رونييه ديكارت، حديث الطريقة، ترجمة عمر الشارني، ط1، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، 2008، ص 60-62.

² عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج 1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص492.

أسسها مماثلة في رسوخها، وبذلك يتسنى لنا أن تحسم وتجني ثمار يقينية البرهان ووضوح الاستدلال. بهذا اهتدى إلى منهج يعتمد عليه لبلوغ المعرفة الحقّة في الفلسفة.

وبالتالي، يعني ديكارت بالمنهج: "قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق، وتبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة بكلّ الأشياء التي تستطيع ادراكها، دون أن تضيع في جهود غير نافعة، بل وهي تزيد في ما للنفس في علم بالتدرّج"¹ وأن يجعله لا يقف البحث عن حقائق هذه الفلسفة فحسب، بل يتجاوزها في البحث عند حقائق العلوم جميعا، يقول في ذلك: " لإجادة قيادة العقل، والبحث عن الحقيقة في العلوم، يليه البصريات، والآثار العلوية، والهندسة، وهي تطبيقات لهذا المنهج"²، ومن أجل هذا نظر في العلوم التي درسها ووازن بين حججها، وبراهينها فوجد أن أكثرها تأكدا ويقينا هي براهين الرياضيات، لذا يريد أن يضع في الفلسفة منهاجا مماثلا للرياضيات، لأنه كان تصور وحدة العلوم الرياضية تصور أيضا وحدة العلوم الفلسفية. ولدراسة منهج هذا الفيلسوف، لا بدّ أن تبدأ بإقرار مبدئين أساسيين:

1-مبدأ استقلال العقل.

2-ومبدأ المساواة بين العقول.

فيما يخص المبدأ الأول، فهو مبدأ ضمني، ومعناه أن العلم الكلي بالذات يجب أن يبدأ باستقلال العقل استقلالاً تاماً بعيداً عن كل سلطة علمية أو غير علمية. وأما المبدأ الثاني، فهو مبدأ المساواة بين العقول إذ يقول في بداية "المقال عن المنهج": " إنّ الصواب - العقل - أعدل أشياء الكون توزعا بين الناس"³ وأعدل الأشياء قسمة بين البشر، فلم يتميز إنسان عن إنسان بزيادة كمية في العقل، ولكن الذي يجعل الناس متميزين هو كيفية استخدام كل واحد منهم لعقله، يقول ديكارت عن ملكة العقل: " ما يسمّى على وجه التحديد

¹ رنيه ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1985، ص 141.

² المرجع نفسه، ص49.

³ رونه ديكارت، حديث في الطريقة، مرجع سابق، ص41.

صواباً أو عقلاً متكافئة بالطبع لدى جميع الناس، وكذلك أنّ تتوع آرائنا لا يحصل من كون البعض أكثر تعقلاً من البعض، بل من كوننا نسوق أفكارنا على دروب مختلفة¹. وكذلك ينشأ الاختلاف بين العلوم في مراتب اليقين، باختلاف المناهج التي يسلكها الباحثون في العلوم المختلفة، وأيقن أنه لو طبق على كل علم المنهج الذي يتبعه الرياضيون في الوصول إلى براهينهم، لبلغت العلوم درجة الرياضيات من حيث استقرار النتائج، ولم يبق شيء يبرر اختلاف العلماء ومجالاتهم.²

لذا صمم ديكارت على أن يعرف كيف يتصرف العقل في طريقة البرهان الرياضي، أي تحليل المنهج الرياضي إلى عناصره العقلية، ولكي نبليغ معرفة الأشياء دون الخشية في الوقوع في الزلل، ولا يوجد ما يمكن أن يحظى بالقبول سوى عمليتين اثنتين يقوم عليهما المنهج هما: الحدس والاستنباط

أ- الحدس:

الحدس بوجه عام مذهب يرد المعرفة في صورها المختلفة، وهو أيضاً الإدراك المباشر لموضوع التفكير، وله أثره في العمليات الذهنية المختلفة، وهناك نوعين:

1- الحدس الحسي، وهو الإدراك الحسي المباشر للأشياء الخارجية كما هي معروفة لدى إيمانويل كانط "الحدوس الحسية".

2- الحدس العقلي، والذي يتخذ أساساً للبرهنة الاستدلالية.

أما الحدس (Intuition) عند ديكارت لا يقصد به شهادة الحواس المبتذلة أو حكماً خادعاً تولده مخيلة تتركب موضوعها بطريقة سيئة، وإنما "هو التصور الذي ينشئه الفكر الخالص المنتبه متولداً عن نور العقل وحده"³. يعني الرؤية المباشرة التي يدرك بها الذهن بعض الحقائق البديهية التي يعتقد فيها الإنسان ولا يتطرق إليها الشك، لا يمكن البرهان عليه

¹ رونيه ديكارت، حديث في الطريقة، مرجع سابق، ص 42.

² مقال عن المنهج، مرجع سابق، ص 137.

³ رنيه ديكارت، قواعد لتوجيه الفكر، ترجمة سفيان سعد الله، دار سراس للنشر، تونس، 2001، ص 36.

لبداهته، فإن أردنا أن نبرهن على فكرة حدسية فإنّ ذلك يعتبر عبثاً فكرياً لا طائل تحته، ولل فكرة الحدسية خاصيتين أساسيتين هما: الوضوح والتمايز. فالفكرة الحدسية يجب أن تكون واضحة بمعنى أن تقوم الفكرة في الذهن، ونسلم بها، فبداهتها لا يتطرق إليها الشك ولا نطلب البرهان عليها، وعكسها الفكرة غير الواضحة المشوشة وهي الفكرة الغامضة التي لا يفهمها الذهن ونحتاج لفهمها أن نستعين بشيء آخر.

وأما التمييز فيقصد به ديكارت ألا تكون الفكرة ملتبسة مع فكرة أخرى، ويسهل فهم قصده في الأمثلة الآتية: أتمنى، أشك، انفعل، أرغب... إلخ، الوعي بهذا الوجود لا يعطيني الفرصة للشك أو انكار وجودي، إذن أنا أقوم بهذه العمليات على أساس الحدس، ومثل تصوّر المثلث محدود بثلاثة أضلاع لا غير، وأنّ المساويان لثالث متساويان، وأنّ لكل جسم شكل محدد وحجم ما¹.

ب- الاستنباط:

يقصد ديكارت بالاستنباط (Dédution) في كتابه "قواعد لتوجيه الفكر" أنه: "عملية نقصد بها كلّ ما يستخلص بالضرورة من أشياء أخرى عرفناها معرفة يقينية"² ويعرفه أيضاً في كتابه: "مقال عن المنهج": "الاستنباط يقصد بها شيء من شيء آخر ومعنى ذلك المرور من حدّ إلى آخر يتلوه أو ينتج عنه مباشرة وبالضرورة"³ كل ما يستخلص بالضرورة من أشياء ويعني انتقال الذهن من قضية أو عدّة قضايا هي المقدمات إلى قضية أخرى هي النتيجة وفق قواعد المنطق، وليس من اللازم أن يكون انتقالاً من العام إلى الخاص، أو من الكلي إلى الجزئي، ومن أوضح صورّ الاستنباط والبرهنة الرياضية، وهو الانتقال من الأخص إلى الأعم.

¹ إبراهيم مصطفى، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، ط1، اسكندرية، 2001، ص97.

² رنيه ديكارت، قواعد لتوجيه الفكر، مرجع سابق، ص37.

³ رونه ديكارت، مقال عن المنهج، مرجع سابق، ص141.

والاستنباط أو المنهج الاستنباطي نوعان: حملي إذا كانت مقدماته مسلما بصدقها بصفة نهائية، وفرضي إذا سلّم بصدقها بصفة مؤقتة. ويقابله المنهج الاستقرائي الذي ينتقل فيه العقل¹ من الجزء إلى الكل.

إذا نميز بين الحدس والاستنباط اليقيني، حيث يتبين في الاستنباط ضربا من الحركة، والتوالي، في حين لا يكون الأمر كذلك في الحدس، كما أنّ الاستنباط لا يتطلب مثل الحدس بالضرورة بدهاء فعلية، ولكنّه بالأحرى يستمد من الذاكرة يقينه بمعنى ما. لذا فالمبادئ الأولى لا نستطيع معرفتها إلا بالحدس، وعلى نقيض ذلك لا نستطيع معرفة النتائج البعيدة إلا بالاستنباط. ذاك هما السبيلان اللذان يقودان إلى العلم على الوجه الأكثر يقينا.

2/- قواعد المنهج عند ديكارت:

ذكر ديكارت في "مقال عن المنهج" أربعة قواعد أساسية يجب أن يتبعها العقل في البحث عن الحقيقة في العلوم، بحيث إذا ما راعاها الباحث بدقة عصمته من الوقوع في الخطأ، وهي:

أ- القاعدة الأولى: قاعدة البدهاء والوضوح

"ألا أقبل شيئا ما على أنه حق، مالم أعرف يقينا أنه كذلك: بمعنى أن أتجنب بعناية التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون لدى أي مجال لوضعه موضع الشك."²

تعتبر هذه القاعدة عند ديكارت أهم القواعد وأخطرهما، وقد ذكرها وأكد عليها في "المقال عن المنهج" وفي "التأملات" وأيضا "مبادئ الفلسفة"³ مما يدلّ على عظم مكانتها في منهجه، وهي تؤكد على أن الإنسان حين يبحث عن الحقيقة في أيّ موضوع عليه أن يحرر نفسه من كلّ سلطة إلا سلطة العقل.

¹ ابراهيم مصطفى، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، مرجع سابق، ص 80.

² رونيه ديكارت، مقال عن المنهج، مرجع سابق، ص ص 190-191.

³ أنظر، رونيه ديكارت، مبادئ الفلسفة، ترجمة عثمان أمير، ج1، مكتبة النهضة المصرية، 1960، ص ص 171-

ب- القاعدة الثانية: قاعدة التحليل

" أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي سأختبرها إلى أجزاء على قدر المستطاع، على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلّها على خير الوجه"¹.

تقول هذه القاعدة الثانية إنّه نظراً إلى أنّ الأشياء التي نبحث فيها هي مركبة غالباً، فإن علينا أنّ نجزئها إلى ما يسمح به من اجزاء بإرجاعها، إلى ما هو أبسط وأقلّ غموضاً. وبالجملة، فإنّه من أجل حلّ مسألة ما، ينبغي ردها إلى عناصر ومعان أبسط².

ج- القاعدة الثالثة: قاعدة التركيب

"أن أسير أفكاري بنظام، بادئاً بأبسط الأمور وأسهلها معرفة كي أتدرج قليلاً حتى أصل إلى معرفة أكثرها ترتيباً، بل وإن أفرض ترتيباً بين الأمور التي لا يسبق بعضها الآخر بالطبع"³

المقصود من هذه القاعدة إنّنا بعد عملية تحليل المشكلة التي أمامنا إلى عناصرها الأولى نعود فنؤلف تلك العناصر كم جديد، فهناك من المشكلات ما يبدو عسيرة الحل، صعبة الفهم في مجموعها، فإذا حللناها إلى عناصرها تبين إمكان حلها، ولكن يجب أن يكون التركيب أو التأليف منطقياً، فليس من الضروري أن يتبع نفس الترتيب الأول، بل قد يكون الترتيب الجديد مقصوراً لذاته.

د- القاعدة الرابعة: قاعدة الإحصاء والمراجعة

"أن أعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أنّني لم أغفل شيئاً"⁴.

يقصد بها الثقة في أننا لم نغفل أي جزء من المشكلة، ويشير هنا ديكارت إلى أمراض الذاكرة، وأن الإنسان بطبعه مصاب بأمراض السهو والخطأ و النسيان.

¹ رونييه ديكارت، مبادئ الفلسفة، مرجع سابق، ص 191.

² عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج 1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص 492.

³ رونييه ديكارت، مقال عن المنهج، مرجع سابق، ص ص 191-192.

⁴ رونييه ديكارت، مقال عن المنهج، مرجع سابق، ص 192.

وخلص القول، إن ديكارت لم يقصد بمنهجه هذا أن يكون منهاجا واحدا يطبق على علم واحد بالذات كالرياضيات، بل أراد منهجا عاما يمكن تطبيقه على كافة العلوم. وإذا كانت للعلوم الرياضية يقين لا يتزعزع، فإن هذا اليقين آت من مناهج الحساب التي تعتمد تلك العلوم عليها، بل من البداهة التامة، بداهة المعاني التي تصطنعها ومن الترتيب الذي يجري عليه تسلسل تلك المعاني.

